نظرات فى الأدب :

الأدب والمجـــتمع

كان من نتائج شيوع المذاهب الاشتراكية ، أن بدأ كثير من الكتاب — ولا سيما دعاة تلك المذاهب — يتجهون فى كتاباتهم اتجاهاً جمياً ؛ ويحاولون أن يعالجوا كل ما يمس المجتمع من قريب أو من بعيد ؛ ويجهدون — قدر الطاقة — فى وسم كل إنتاج لهم بالميسم الاجتماعى .

ولا شك أن هذا الاتجاه إلى معالجة شئون المجتمع ، والنظر إليها هذه النظرة الفاحصة المحمسة لما يحمد أثره فى النهوض بالشعوب والرقى بالأمم .

ولا شك فى أنه أيضاً اتجاه طبيعى إلى حد كبير ؛ وهو — فى ذاته — معقول وجد ، لأنه يتفق وغلبة النزعة الاشتراكية على بلاد العالم جمعاء ... حتى الديموقراطية منها .

ولكن كل هذا — وإن كنا نقره ونعترف به — لا يبرر — بأى حال — وجوب اتجاه الأدب — بوصفه فناً من الفنون الجيلة — إلى المجتمع ... والمجتمع فحسب : يعالج شئونه ، ويجاهد أن يحل قضاياه ، ويتلمس أن يتعرف علله الظاهرة منها والباطنة ؛ ثم هو لا يتجه من بعد ذلك إلى غير هذا ؛ فهو من المجتمع : ابنه البكر ووليده الشمول برعايته — وإليه ؛ ولا ينبغى أن يبتعد عنه ويروح يغوص فى لجج التيارات الفردية والنزعات الإنسانية التى تلغى قيود الزمنية والمكانية .

... هذا بعينه — هو ما يذهب إليه دعاة الأدب للمجتمع ... ذلك النفر الغالى فى إنكار الذات إلى حد غير متقبل عقلا وبداهة

لقد ظن أولئك الدعاة أن الأديب يحيد عن رسالته الروحية حين لا يصرف كل جهوده فى توجيه المجتمع وحل قضاياه ؛ وارتأوا

وتنل بكنجهام بيد مغتال لأمر لا يتصل بالسياسة فتنفس الناس الصعداء ، وخفف عنهم ذلك مروق وتتورث شيئا قليلا ودأب الملك فى جمع ضريبة التجارة ، وعاد الجند يفرضون على الناس لأطماعهم وإيوائهم أينما انتقلوا ، ونظر النواب فإذا ملتمس الحقوق لم يبق فيه من الحقوق شىء .

فلما اجتمع البرلمان سنة ١٦٢٩ كانت قلوب أعضائه مليئة بالسخط على الملك الذى نقض عهده ، وأخذ البرلمان يدعو إليه بعض المسؤولين ليستجوبهم عما عدم مخطئين فيه مما يتصل بجباية ضريبة التجارة فكان عمله هذا تحديا لإرادة الملك .

وأعد بعض النواب مقترحا فحواه أن جباية هذه الضريبة عمل غير قانونى فليس على الناس أن يدفعوها ، وصاح فيهم رئيس المجلس أن الملك قد أمره ألا يكون موضع مناقشة ، ونظر الرئيس فكأنما انقلب المجلس بركانا يلفظ الحمم ، وصعب عليه أن يتبين ما هز أرجاء القاعة من عبارات صاخبة فى احتجاج على تدخل الملك فى إدارة الجلسة ومن هتاف بوجوب الأصرار على المقترح ، ومن صيحات موجهة إلى الرئيس أن ينزل عن كرسيه إلى غير ذلك من مظاهر الغضب والسخط ، وذهب بعض النواب فأغلقوا باب القاعة وجاءوا بمفتاحها فوضعوه على المنصة وأنزل عضوان الرئيس عن كرسيه بالقوة وبعض اللوردات وكبار الموظفين يطرقون الباب فى غير جدوى إلى أن قرىء المقترح ووافق عليه النواب فى حماسة عظيمة ، ومما جاء فيه قول النواب « إن من يحدث تغييراً فى الدين أو من يفرض ضريبة جديدة أو يدفعها بغير موافقة البرلمان فهو عدو للمملكة » .

ولما نما ذلك إلى الملك لم يسعه إلا حل البرلمان فحله فى اليوم الذى تحدد لاجتماعه بعد هذه الجلسة المشهودة ، وأمر الملك فقبض على بعض أعضائه وأرسلوا إلى السجن ؛ وكان فى مقدمتهم سير جون إليوت صديق همبدن وصاحب المقترح ، وبعد مضى بعض الوقت تاب الأعضاء مما فعلوا فخلى سبيلهم إلا اليوت فقد ظل على إصراره . وساءت فى السجن حالته ومشى السقم فى بدنه فما زاده ذلك إلا عناداً وإصراراً . واقترب منه الموت بعد بضع سنين فما أخافه شبح الموت ولا أوهن له اصطبارا أولاق النائب الشجاع حتفه بين جدران السجن فكان أحد شهداء الحرية ، وكان من السهل أن يشترى حياته بأذعانه لمن سجنه ولكنه آثر ميتة البطل ؛ ولم يتورع الملك عن أن يكيد له وهو بعد رفات فمنع أهله من أن يدفنوا جثته خارج السجن فوسد حيث استشهد ، ودفن حيث أبت روحه أن تدفن .

(يتبع) **الخفيف**

أن في انتهاجه المنحى الفردى — الذى يحصر حدود الكلام فيما يعتلج فى النفس ويدور حولها ويتعلق بها ويرتد إليها — انحرافا يستدل منه على أنه لا يعانى المجتمع ويجرى وراء الأوهام والتعلات !

وهذا قول من شأنه أن يضيق من حدود مجالات الأدب الفسيحة ، حتى يضيق الأدب به ويضيق بأصحابه على خلاف ما يتوهمون !

إن الأدب — أسوة بغيره من الفنون — تعبير[1] ... تعبير بكل ما نريد بهذه الكلمة من تبيان معانى « الإفصاح والإبانة والتجلية » . وفن هذا شأنه وهذه طبيعته ، لا يمكن أن نقصره على أن يكون صدى لمجتمع بعينه أو بيئة بعينها . وكل ما ينبغى أن نطالبه به ونلتمسه فيه ، هو أن يكون صادقاً مبيناً صادراً عن نفس تحس فتتأثر ثم تؤثر .

والكاتب حين يصدر فى إنتاجه عن حس صادق مستوفز للمؤثرات والحوافز ، وملكة مواتية ذلول تموج فيها تيارات الإلهام الدافق المتفجر — لا يمكن أن يكون « مسئولا » بعد ذلك ، عما إذا كان قد تناول شئون المجتمع أم طوى كشحاً عنها ... لا يمكن أن يكون « مسئولا » فى « عرف » آلهة الفن وحواريه وملائكته ... وشياطينه أيضاً ! ولا علينا بعد ذلك أن يكون « مسئولا » أمام المجتمع أو أمام الساسة المهرجين !

أجل ... حسب الأديب الفنان أنه عبر ... فى صدق وإخلاص يكون لهما فى القلب رنين ... حسبه هذا ، وكفى به رصيداً — أى رصيد — يضم إلى تراث الإنسانية الرفيع !

وتعبير هذا شأنه من الصدق وتحرى نفحات الإلهام هو — من غير شك — لذو أثر فى السمو بالإنسانية عامة — أيا كان لونه واتجاهه . ولا يعنينا — بعد ذلك — أن يكون إحساس هذا الأثر جلياً ظاهراً للعيان ، صادراً عن مجاوبة مجتمع بعينه ، أم خفياً ينسرب إلى التراث الإنسانى فى خفة العصفور الدقيق الرشيق ... بل إنى لأراه أطيب وأوقع فى النفس ، وأقوى على تحمل البقاء فى رصيد الإنسانية ، حال خفائه وانسرابه إليه فى خفة العصفور الدقيق الرشيق!

(١) راجع فى هذا المعنى — متوسعاً فيه — مقالا نفيساً ماتعاً ، للكاتب الكبير الأستاذ العقاد عنوانه « أسئلة وأجوبة » — ع (٥٩٩) من الرسالة .

وإنى لأسمع الكثيرين يتساءلون حين يصادفون نتاجاً أدبياً ، يتناول وقائع خاصة أو أحداثاً شخصية فردية بحتا ، بحيث لا تمس أحوال المجتمع فى كثير أو قليل ... إنى لأسمعهم يتساءلون فى أسى وحيرة : « ... وما جدوى هذا الإنتاج للمجتمع ؟ ! »

... وما أحراهم أن يدبروا هذه الأسئلة التالية فى عقولهم — وفى قلوبهم أيضاً ! — ليجدوا المخلص من آسامهم وحيرتهم اللذين لا مبرر لهما ... فى نظرى :

أليس هذا الإنتاج « إنسانياً » على كل حال ؟ أليس المجتمع — فى ذاته — ليس إلا مجموعة أفراد ؟ ... ومهما تمايزت المجتمعات واختلفت الشعوب وتباينت النحل والأجناس ، ألا توحد بينها جميعاً رابطة الإنسانية العليا ؟ ! ... ثم ... أليس فى حكم البداهة المقررة أن النفس الإنسانية — مهما تعددت فى شكولها الظاهرية ، وبالنسبة إلى الزمنية والمكانية — واحدة فى جوهرها وفى صميم فطرتها الأصيلة ؟ !

... ولا ينبغى أن يخشى أولئك الاجتماعيون — الذين يريدون أن يستأثروا بهذا الوصف وحدهم ... لست أدرى لماذا ؟ ! — لا ينبغى أن يخشوا أن ينحرف الأديب — إذا لم يقيد إنتاجه بالغرض الاجتماعى والهدف النفعى — إلى قضايا الشر يؤيدها ويمجدها ويحث على إثارتها ... فيهود بذلك المجتمع ويصبح حرباً عليه ، حين كان يؤمل فيه — لو أنه توجه فى تياره — أن يكون عوناً له ونوراً به يستضىء ... لا ينبغى أن يخشى أولئك الاجتماعيون ، شيئاً من ذلك على الإطلاق ، لأننا لا نعرف الفنان إلا خيراً ، ولا نعرف الفن إلا خيراً صرفاً كله ؛ لأنه لا يجوز فى الذهن — والفنون بالبداهة أسمى كنوز الإنسانية ، وأغلى ما نعتز به من تراث — أن تكون نفس الفنان مركبة على حب الشر والنزوع إليه . وما هذا الأدب الشرير الذى منه يتوجسون وعلى مجتمعهم منه يشفقون ، إلا غطاء ظاهرى نسجه المجتمع اللعين ، وظاهره فى ذلك القدر فطمر على ينابيع الخير الثرة فى النفس الفنانة الشفيفة

... لا خوف على الإنسانية من شر ظاهرى زائف ، يفضحه الخير المتأصل فى النفس — ونعنى بها هنا نفس الفنان — تأصل الخصب فى الأرض الطيبة السمحة !

(مصر الجديدة) عبد العزيز الكرواني